

التحرر العرفاني مؤكدا على شعر منصور الحلاج

د. عباس اقبالي

استاذ مشارك فى قسم اللغة العربية و آدابها

جامعة كاشان (إيران)

موجز المقال:

إنَّ تحرُّر الإنسان من القيود النفسانية، وثيق الصلة بنظرته إلى الوجود و على ذلك فإنَّ تحرُّر العارف مبنية على المعرفة التي ينالها و تلك عن جرأ تجاربه الشخصية، و تهذيبه للنفس ورياضاته الشاقّة، و بهذا تحصل للعارف احوال لا تصاغ فى قوالب الكلمات و لا ترتدى ثوب الألفاظ العادية و يضيأن بها على غير أهلها؛ و لذلك ما انفكّ كلام العرفاء مشحون بالرموز و المصطلحات. و كلمة « أنا الحق » لحسين بن منصور الحلاج - التي نعبر عنها فى هذا المقال بـ «أنا» المنصوري - ، تعدّ من هذه التعبيرات الرمزية و التي طرحت بأشكال مختلفة و تنبئ عن أحوال هذا العارف المهدّب المتحرّر عن قيود النفس ، و هى رمز ايدئولوجيته التوحيدية.

و قد كشف هذا المقال النقاب - بعد بيان ميزات المعرفة و استعراض كلمات العرفاء - عن أنَّ الحلاج قد تحرّر قلبه من كل العلائق والقيود والأقفال و صار عبدا حرا ومخلصاً من كلّ ما سوى الله، حتى من نفسه، و كان يعتقد بوحدة الوجود، بمختلف أبعادها المتمثلة فى الوحدة الوجودية و الوحدة الحلولية و وحدة التجلّى.

المصطلحات الرئيسية: التحرر، أنا الحق، الحلاج. الوحدة الوجودية، الوحدة الحلولية، وحدة التجلّى.

The freedom in mystic

Uncertain on Mansoor HallajTs poetry

Abbas Eghbaly*

Carnal human freedom from constraint is inextricably linked with his view of the universe. The mystic bothering is based on his knowledge, recognizing that through personal experience and refinement of breath and severe austerity

* . Associate professor Department of Arabic of the University of Kashan .

screw. Personal experience that expressing them in words not fit and not wearing Parnia ordinary words. And manner of expression of these experiences, a sign of freedom and liberation from traditional styles. In this regard, password "Ana al-haq" Attributed to Mansoor Hallaj is a sign of the philosophy of this mystic.

This cross-sectional study ways of expression through a few examples of speech recognition،

سِوَاهُ تَكُونُ عَبْدَ اللَّهِ حَقًّا وَأَنْتَ لِشَيْءٍ لَا. ارفع نفسك من الطّرىق فقد وصلت»
لَنْ تَكُونَ لَهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ عَبْدًا وَشَيْءٌ مِمَّا دُونَهُ لَكَ مُسْتَرْقٌ «مُسْتَرْقًا»، وَايْضًا: "إِنْ ك

features mystical, mystic, mystic view of the freedom to explore emerging. And it has that mystic deliver true freedom of all depents and locks and dams knows except God, even your species servant of all freely placed

Key words : "freedom", "Ana al-haq", "Al-Hallaj", "pantheism", "mystic"

المقدّمه:

معلوم أنّ التحرّر ليس بمعزل عن معرفة الانسان وعلى ذلك فإنّ التحرّر عند الصوفي و علامته تختلفان عن الآخرين كما أنّ المعرفة العرفانيّة الصوفية تتفاوت عن سائر المعارف؛ لأنّها حصيلة تجربة كشف و ذوق تلهم صاحبها إلهاما من الله سبحانه و تعالى. و العارف فى بيان هذه الثمرة، يستخدم رموزا و مصطلحات مبهمة لا يعيها إلا هو. و مصطلح «أنا الحق» المنسوب إلى الحسين بن منصور الحلاج من جملة هذه الرموز.

و قد تناول هذا المقال بدراسة ما يدلّ على تحرّر الصوفي المتمثّلة في كلمات العرفاء و لا سيّما الحلاج عبر التتبع فى النصوص العرفانيّة و جرّاء دراسة ديوان الشاعر، مؤكدا على الكلمة المشهورة المنسوبة إليه يعنى «أنا الحق» بغية استيعاب مفهوم «الأنا» لدى العرفاء و و تبين ما يؤكّد على حرّية الحلاج المتبلورة في اتّجاهاته التوحيدية و عقيدته فى «الوحدة الوجودية» و «الوحدة الحلولية» و «وحدة التجلّى».

و بما أنّ الحلاج هو أوّل من ابتدع عنوان «الأنا» و أدخله فى الشعر الصّوفى، فقد أكّدنا فى عنوان المقال على «الأنا المنصوري».

المعرفة العرفانيّة - الصوفية:

المعرفة العرفانيّة، هى حصيلة الكشف و الشّهود لدى العارفين و ما هى إلا ثمرة تجاربهم الشخصيّة، التجربة الّتى تعادل كلمة experience (1)، لا ما يعادل كلمة experiment، يعنى ما تنتهى إلى المعرفة و الخبرة الشخصية لدى الانسان، معرفة ليس

للعقل فيها أى دور بارز، حيث إنّ العقل عند الصّوفيّة ليس هو الوسيلة الوحيدة للمعرفة بل إنّه ليس مصدراً يقينياً دائماً؛ إذ العقل عجز عن الإجابة على الأسئلة الميتافيزيقية وقد كشف قصوره و ألبأ المتصوّفة المسلمين إلى أن يتجاوزوا حدود العقل إلى ما وراء العقل إيماناً منهم بأنّ العقل وحده ليس نهاية المطاف للعلوم. لقد ظلّت المسائل المتعلقة بالغيب تبحث عن إجابة في مخيلة الصّوفي فكان السؤال أكبر من حدود العقل الذي أنتج السؤال نفسه. قال النّوري: «العقل عاجز لا يدلّ إلّا على عاجز مثله» ومن هنا فإنّ الإلهام والكشف والدّوق لم يكونوا إلّا سبلاً صوفيةً خاصّة لتجاوز ذلك الفراغ المعرفي الذي أنتجه عجز العقل بالمفهوم الصّوفي، فأثبت «الإلهام» كمصدر معرفي تفوق على العقل الذي عجز عن صنع الإجابة للسؤال المطلق»¹.

يقول ابن عربي:

«وَأَمَّا الْقُوَّةُ الْعَقْلِيَّةُ فَلَا يَصِحُّ أَنْ يَدْرِكَهُ - تَعَالَى - الْعَقْلُ، فَإِنَّ الْعَقْلَ لَا يَقْبَلُ إِلَّا مَا عِلْمُهُ بَدِيهَةٌ، أَوْ مَا أَعْطَاهُ الْفِكْرُ، وَقَدْ بَطَلَ إدْرَاكُ الْفِكْرِ لَهُ - تَعَالَى - فَقَدْ بَطَلَ إدْرَاكُ الْعَقْلِ لَهُ مِنْ طَرِيقِ الْفِكْرِ وَلَكِنْ بِمَا هُوَ عَقْلٌ، إِنَّمَا حَدَّهُ أَنْ يَعْقَلَ وَيَضْبُطَ مَا حَصَلَ عِنْدَهُ، فَقَدْ يَهْبَهُ الْحَقُّ الْمَعْرِفَةَ بِهِ، فَيَعْقِلُهَا لِأَنَّهُ عَقْلٌ لَا مِنْ طَرِيقِ الْفِكْرِ هَذَا مَا لَا نَمْنَعُهُ. فَإِنَّ هَذِهِ الْمَعْرِفَةَ الَّتِي يَهْبِهَا الْحَقُّ - تَعَالَى - لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لَا يَسْتَقِلُّ الْعَقْلُ بِإِدْرَاكِهَا، وَلَكِنْ يَقْبَلُهَا، فَلَا يَقُومُ عَلَيْهَا دَلِيلٌ وَلَا بُرْهَانٌ لِأَنَّهَا وَرَاءَ طُورِ مَدَارِكِ الْعَقْلِ»².

يقول الحلاج:

مَنْ رَامَهُ بِالْعَقْلِ مُسْتَرْشِداً أَسْرَحَهُ فِي حَيْرَةٍ يَلْهُو³
الالهام للعارف - فى التجربة الذاتية - يعتبر مصدر المعرفة، و هذا الالهام حاكم على العقل والاستدلال. وقد قال النّبى (صلى الله عليه وآله) :

إنّ الله احتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار⁴ ويقول الحلاج:
إن كنت بالغيب عن عيني محتجباً فالقلب يركب في الإبعاد والنائي⁵
الكشف والشهود (2) ثمرة التي تلهم العارف من لدن العزيز الحكيم، و هذا الكشف يحصل من جرأ الرياضة وتهذيب النفس، يقول ابن فارض المصري:
وهذبت نفسي بالرياضة ذاهباً إلى كشف ما حجب العوائد غطت⁶
و أيضاً يقول:

وحققت بالكشف، أنّ بنوره الهـ تديت، إلى أفعاله، بالدجنة⁷
وفى الحديث: العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء⁸ وفى هذا المجال يقول ابن عربي:

«العلم الصحيح لا يعطيه الفكر، ولا ما قررته العقلاء من حيث أفكارهم، وإن العلم الصحيح إنّما يقذفه الله في قلب عالم وهو نور الهى يختص (الله) به من يشاء من عباده من ملك، ورسول، ونبي، وولي، ومؤمن. ومن لا كشف له، لا علم له.»⁹

كلام العرفاء:

للعرفاء رؤية خاصة نحو العالم، رؤيتهم تتفاوت عن غيرهم، ففى الله و ففى الوجود و ففى أسماء الإله و صفاته عزّ و جلّ و ففى الانسان. و ما تحصل لهم من الاحوال لا يرتدى ثوب الالفاظ؛ لأنّ الكلمات المتداولة بين عامّة الناس قد وضعت لما عرفها الانسان عن طريق الحواس، و معلوم أنّ المعرفة العرفانية ليست إلا حصيلة الذّوق. و لذلك للعرفاء اسلوب خاص ففى البيان، و نرى عندهم الجنوح نحو اللّغة الشّعريّة باعتبارها وسيلة لبيان نزعة الانسان نحو المطلق، عن طريق الرّموز والكنائيات، و الشّعـر - كما قال ابن عربى - كلام رمز و توريّة.¹⁰

و فى هذا المجال، يقول مرتضى المطهّرى: إنّ للعرفاء مصطلحات كثيرة لا يتيسّر فهم مقاصدهم من دون الوقوف عليها، و قد تعمّدوا أن تحيط بتلك المقاصد و الأغراض هالة من الخفاء و الغموض لنلّا يطلّع عليها أتباع غير طريقتهم لتظلّ المفردات العرفانية ففى طىّ الـكتمان، خلافاً لرواد العلوم والفنون الأخرى¹¹، و على هذا، فتلك المصطلحات - علاوة على طابعها الاصطلاحي - لها طابع رمزي. ويعلّل ابوالقاسم عبدالكريم القشيري هذا الاسلوب لكلام العرفاء و يقول:

«اعلم أنّ من المعلوم: أنّ لكلّ طائفة من العلماء لهم ألفاظ يستعملونها - فيما بينهم - انفردوا بها عمّن سواهم، تواطأوا عليها، لأغراض لهم فيها من تقريب الفهم على المخاطبين بها أو تسهيل على أهل تلك الصنعة في الوقوف على معانيهم، بإطلاقها و هذه الطائفة يستعملون ألفاظاً فيما بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، و الإجمال و السّتر على من باينهم في طريقتهم، لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب، غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها، إذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلف أو مجلوبة بضرب تصرف، بل هي معان أودعها الله تعالى قلوب قوم، واستخلص لحقائقها أسرار قوم¹². و يقول السهرودي:

بالسرّ إن باحوا تباح دماؤهم و كذا دماء الباحثين تباح¹³

و المصطلحات نحو «الوارد» (3)، الخواطر (4)، «الذوق» (5)، «الوجد» (6)، «الفرق والجمع» (7)، و «القبض والبسط» (8)، و.... بمفهومها الخاص العرفاني من التّعابير المتداولة بين العرفاء. و ففى المثال: الرياضة تعنى تمرين النّفس على قبول الصّدق و الرياضة الخاصة تجريد الشّهود و الصّعود إلى الجمع ورفض المعارضات و المعاوزات¹⁴.

و ففى هذا المقال بغية كشف ما يدلّ على أن الصوفي متحرّر من كلّ قيد لا يرتضيه العقل و أنّه قد عتق من الاستعباد والاسترقاق المعنوي لأدران النفس وحبب المادة؛ نتطرّق إلى مبانيه المعرفية؛ فبما أنّ للصوفي معرفة خاصة و لكلامه طابع رمزي اخترنا كلمة «أنا الحق» المنسوبة إلى الحلاج و التّى كثر استعمالها على لسان العرفاء، خاصة عند هذا الصوفي، و نعبر عنها بـ «الأنا» المنصوري، لأنّه قد ابتدع و استعمل هذه الكلمة في

معناه العرفاني، يعنى الاتصال بين «أنا» و «أنت» و حلول اللاهوت فى الناسوت وكان يقول: «ما فى الجبة غير الله»، وقال «أنا الحق»¹⁵ وأنشد:

أنا من أهوى و من أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته و إذا أبصرته أبصرتنا
أيها السائل عن قصتنا لو ترانا لم تفرق بيننا
روحه روجي و روجي روحه من رأي روجين حلت بدنا¹⁶
و معلوم أنه لا تفنى الأنا و لا تتماحي مع الحقيقة «المحبة» إلا بسقوط الأنانية بالكلية
و الفناء التام فيها.

فلم تهوني ما لم تكن في فانياً و لم تفن ما لا تجتلي فيك صورتي
و لا بد من نفي الاثنينية الخطابية (أنا و أنت) حتى يصبح المتكلم عين المخاطب كما
أشار اليه الشاعر:

فقد رفعت تاء المخاطب بيننا و فى رفعها عن فرقة الفرق رفعتي
و يعلق ابو العلا عفيفي على هذا البيت فى ترجمته لكتاب نيكلسون - فى التصوف
الاسلامي وتاريخه - قائلاً: قد يكون المراد برفع تاء المخاطب إلالتها بمعنى أنه إذا أراد
أحدهما مخاطبة صاحبه تكلم عن نفسه، إذ كلاهما واحد و لكن يحتمل أيضاً أن يكون المراد
بالرفع ضم تاء المخاطب، بمعنى أنه يقول لمحبيبته (فعلت) بدلاً من (فعلت) و هي تقول
(فعلت) بدلاً من (فعلت) و على هذا يزول الفرق بينه و بينها، و ترتفع منزلتي بارتفاع ذلك
الفرق الموجب للتفرقة و البعد بينهما.¹⁷

و لا يخفى أن هذه الوحدة، المعبر عنها بوحدة الوجود أو وحدة الشهود، لها جذور فى
الآيات القرآنية و الأحاديث المروية، حيث يقول الله عز وجل: «سنريهم آياتنا فى الأفاق و فى
أنفسهم»¹⁸ و

« فسوف يأتي الله بقوم يحبهم و يحبونه»¹⁹ و قد جاء فى كلام إمام العارفين على
بن ابي طالب (عليه السلام): أنا عين الله، أنا يد الله، أنا جنب الله، أنا باب الله.²⁰ و قد أشار
إليها أبو العتاهية و قال:

ولله فى كل تحريكة و فى كل تسكينة شاهد
و فى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد²¹

عرفان الحلاج

الحسين بن منصور الحلاج، ابو مغيث، فيلسوف (ت 309) ظهر أمره سنة 299 هـ، فاتبع
بعض الناس طريقته فى التوحيد و الإيمان²²، هو صوفى قد أحدث ضجة بين العرفاء
الاسلاميين، له شطحيات (9) كثيرة و قد اتهم بال كفر و الارتداد و ادعاء الألوهية²³ و
يعتقد نيكلسون أن الحلاج كان يؤمن بوحدة الشهود و بوحدة الوجود²⁴ كما جنح اقبال

اللاهوتى إلى هذا الرأى معتبراً إياه رائداً لبث الوعى فى صنوف الناس فى القرون الوسطى²⁵.

و قد أخذ الحلاج عن الشيعة فكرة عمود النور محلّ قلوب المؤمنين، - حسب تعبير شوقى ضيف - كأن الله يتجلّى فيهم منذ البدء²⁶ و أنّه تتقّف بالثقافة المسيحية و عرف ما فيها من طبيعة المسيح معرفة بيّنة و استقرّ فى نفسه أنّ كلّ ما قيل عن اللاهوت و الناسوت فيه يصدق على كلّ متصوّف جاهد جهاداً عنيفاً فى الاتّصال برّبّه و محبّته، محبة تملّك عليه الشّغاف من قلبه حتّى ليحسّ فى قوّة بالاتّحاد معه ممّا جعله يقول:

أنا من أهوى و من أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتنى أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

و يقول: لا نبعد إذا قلنا إنّهُ هو الذى وضع فى التّصوّف الاسلامى فكرة أنّ الأديان جميعاً تؤدّى إلى الله، و فقط تختلف شعائرها و لكنّها تتحدّ فى الغاية و بذلك تخطى حدود الاسلام إلى حدود الديانات جميعاً.²⁷

يقول آدم متز: «إنّ الغنوصيّة Gnosticisme (10) متأثرة من التّنويّة المسيحيّة». و لكن الغنوصيّة الإسلاميّة تتكى على القوس الصّعودى، و كلّ انسان يستطيع من جرّاء الرياضة و التّعليم أن ينحسر من مادّياته و يزيد فى معنويّاته و يصل إلى مقام لا يرى إلّا الله و يقول: «ليس فيّ جيتي إلّا الله». إنّ إله الانسان المسلم لا يشار إليه، و إله المسيحى قد اختلط بالتوحيد العددي اليهودى و تتكى على القوس النّزولى و على تجسيد اللاهوت فى الناسوت، و قد انحصرت فى شخص باسم المسيح.²⁸

و الجدير بالذّكر أنّ الحلاج كان رجل أبى تحرّر من قيود الشهوات و النفس الأمّارة و طهر قلبه من درن الأنانية و الشرك و وصل إلى مقام وحدة الشّهود (11) لما قال: «ما رأيت شيئاً إلّا و رأيت الله معه»، و بديهى أنّ عارفا مهذباً كهذا يعتبر المذاهب كلّها طرقاً للوصول إلى الحقّ سبحانه، فقد قيل: «إنّ أقسام النّاس و عقولهم متفاوتة فى قبول العرفان و تحصيل الاطمئنان كمّاً وكيفاً، شدّة و ضعفاً، سرعة و بطئاً، حالا و علماً، كشفاً و عياناً و إنّ كان أصل المعرفة فطرياً، إمّا ضرورى أو يهتدى إليه بأدنى تنبيه، فل كلّ طريقة، هداه الله عزّ وجلّ إليها إنّ كان من أهل الهداية، و الطرق إلى الله بعدد النّاس و الخلائق و هم درجات عند الله، يرفع الله الذين آمنوا من كمّ و الذين أوتوا العلم درجات»²⁹ فيقول الحلاج:

تفكرت في الأديان جدّ محقق فألفيتها أصلاً له شعّب جمّاً
فلا تطلبن للمرء ديناً فإنّه يصدّ عن الأصل الوثيق و إنّما
يطالبه أصل يعبر عنده جميع المعالي و المعاني فيفهم³⁰

الحلاج يعتبر فهم الحقيقة هبة من الله تعالى و يقول:

فاسمع بقلبك ما يأتيك عن ثقة و انظر بفهمك، فالتمييز موهوب³¹
الحلاج يصغى بضميره إلى كلمات المحبوب عز وجل، إنها كلمات لا تصاغ في قوالب
الألفاظ بل هي الهامات ترد على خاطر العارف ويقول:

لي حبيب أزور في الخلوات حاضراً غائب عن اللحظات
ما تراني أصغي إليه بسري كي أعني ما يقول من كلمات
كلمات من غير شكل ولا نط حق ولا مثل نغمة الأصوات
فكأنني مخاطب كنت إياها على خاطري بذاتي لذاتي³²

الحلاج يستخدم لغات ومصطلحات غنية استلهمها من المذاهب السماوية المتنوعة و
هو لا يعدّها جهداً لتقوية تلك المذاهب والمشارب بل هي باعتبار روح الدعوة الدينية.³³
وهو أول شاعر صوفي احتفى بـ «الأنا» كمفهوم شعري صوفي، محاولاً تأسيسه في
الشعر الصوفي، معتمداً على ضمير المتكلم «أنا» وعلاقته بضمير المخاطب «أنت» و
سعى إلى أن يخلق بين ضمير المتكلم «أنا» و ضمير الخطاب «أنت»، اتحاداً انفرد به عن
سائر العرفاء ويعدّ ميزة بارزة في شعره، وقد اطلق عليه مصطلح أو مفهوم «الحلول» أي
حلول اللاهوت في الناسوت³⁴ وهو تجلّي اللاهوت في الناسوت. حيث يقول:

سبحان من أظهر ناسوته سرّ سنا لاهوته الثاقب
ثمّ بدا لخلقه ظاهراً في صورة الأكل والشرب
حتّى لقد عاينه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجب³⁵

«الأنا» عند العرفاء حجاب وهذا الحجاب يفصلهم عن الحق سبحانه وتعالى كما قيل:
«ارفع نفسك من الطريق فقد وصلت...»³⁶ والحلاج يطرد هذا «الأنا». إنّه زكّى نفسه عن
الغرور وفرغتها و صار متحرراً بالكلية فلا يعتقد بالإثنينية في الوجود بل يعدّ نفسه
مظهراً لذات الحق عزّ ذكره ولا ينظر إلى هذا «الأنا» و يتحيّر ويقول:

أنت أم أنا هذا في إلهين حاشاك حاشاك من اثبات إثنيين
هوية لك في لا ئيتي أبدا كلى على الكلّ تلبس بوجهين
فأين ذاتك عنّي حيث كنت أرى فقد تبين ذاتي حيث لا أيني
و أين وجهك؟ مقصوداً بناظرتي في باطن القلب أم في ناظر القلب³⁷

وعندما يريد أن يلبّي ربّه، لا يحتسب نفسه بمعزل عن الله تعالى ولذلك يتحيّر،
أيلبّي إياه سبحانه وتعالى، أو يخاطب نفسه؟! ويقول:

لبّيك، لبّيك، يا سري و نجواني لبّيك، لبّيك، يا قصدي ومعنائي
أدعوك بل أنت تدعوني إليك فهل ناديت إياك أم ناديت إياي؟
ولا يزال متحيّر ولا يعرف مهمته في حبه لله عز وجل وينشد:
فكيف أصنع في حبّ كلّفت به مولاي قد ملّ من سقمي إطبائي
قالوا تداول به منه فقلت لهم: يا قوم هل نداوي الداء بالدائي³⁸

و بما أن مصدر المعرفة هو قلب السالك الذي قد أضاء فيه الرب عز وجل من نور رحمته، والعارف بمعونة هذا العطاء يفهم ويدرك السر المخفى للعالم.³⁹ فقد روى الإمام الحافظ ابن أبي شيبة في (المصنف رقم 35485 عوامة) قال: حدثنا أبو خالد الأحمر، عن حجاج، عن مكحول: قال: بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما أخلص عبد أربعين صباحا إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه." والحلاج بما أنه عبد مخلص معرفته حصلت من جرأ تجربة ذاتية أي من الكشف والشهود إذ يقول:

رأيت ربّي بعين قلبي فقلت من أنت قال أنت
أشار سري إليك حتّى فنيت عنّي و دمت أنت⁴⁰

«الأنا» المنصوري

لا غرو أن تعيين المفهوم الدقيق لكلمة «الأنا» متعذر؛ إذ قد استخدمت هذه الكلمة في أكثر فروع العلوم الإنسانية لاسيما الفلسفة و علم النفس و الصّرف و النّحو العربي و لها معان اصطلاحية تتباين في كلّ منها ، ففي الفلسفة «الأنا»: مبدأ التفكير عند الفلاسفة المحدثين⁴¹ ، و هو مبنى فكرة ديكرت حيث قال: أفكر، إذن فأنا موجود⁴² و في علم النفس: «الأنا» البشري تستقل عن وجود الانسان المادي⁴³ و هي تجربة الفرد لنفسه، أو تصوّره الكلّي لذاته، أو الوحدة الديناميّة التي تؤلّف الفرد.⁴⁴ و في النهاية: «أنا» في علم الصّرف: ضمير رفع منفصل للمتكلم⁴⁵ . و في النصوص العرفانية تتباين عما ورد في العلوم المذكورة، بل هو عنوان لما هو وليد التجربة الخاصّة للعارف وثمره نظريته العرفانية إلى العالم، نظرة أسست على وحدة التجلّي و أن العالم مظهر هذا التجلّي، فلقد جاء في القرآن الكريم: أينما تولّوا فثمّ وجه الله⁴⁶ و قد حكى عن الحلاج: ما رأيت شيئا إلا و رأيت الله معه وقد قال ابو حامد الغزالي:

و هل أنا إلا أنت ذاتاً و وحدةً و هل أنت إلا نفس عيني هويّتي
و هل أنا إلا دوحة قد غرستها فإن لم يصبها وابل منك جفّت
و الحلاج عندما يتحدّث عن هذا التجلّي يقول :

لم يبق بيني وبين الحقّ تبييني و لا دليل بايات و برهان
هذا تجلّي طلوع الحقّ نائره قد أزهت في تلايلها بسلطان⁴⁷

و في نظرة العارف، المحبّة هي أساس تلك الوحدة و القوّة الفاعلة في فناء «الأنا» في «الأنا» حتّى يصبح الإثنينان (العبد و الربّ) قياما واحداً في قائم الانسان الذي جمع بين عالمي الشّهادة والغيب، الرّوح و الجسد. في هذه الوحدة يصير المحبّ عين المحبوب و لا يستقل أحد عن الآخر يقول سري سقطي: لا تصحّ المحبّة بين اثنين حتّى يقول أحدهما للآخر: يا «أنا»⁴⁸ و يقول الحلاج:

إنّ كتابي «يا أنا» عن فرط سقم و ضنى⁴⁹

و يقول:

قد وسم الحبّ منه قلبي بميسم الشّوق أيّ وسم
و غاب عني شهود ذاتي بالقرب حتّى نسيت اسمي⁵⁰

و يقول:

أنا في الحبّ قتيل و مع الأحباب فاني⁵¹

التوحيد فى شعر الحلاج

لقد جاء هذا المفهوم فى كلام لإمام العرفاء، أمير المؤمنين على بن ابى طالب (عليه السلام) إذ يقول: إنّ الله سبحانه و تعالى داخل فى الأشياء لا كشيء داخل فى شيء و خارج من الأشياء لا كشيء خارج عن شيء⁵².

و الحلاج فى مجال اثبات توحيده تعالى، يأتى ببرهان الصّديقين، إذ فى هذا البرهان، نفس الواجب - سبحانه - دليل على ذاته تعالى⁵³ و يقول:

لا يستدلّ على الباري بصنّعه رأيتم حدثا ينبي عن أزمان؟
كان الدليل له منه إليه به من شاهد الحقّ في تنزيل فرقان
كان الدليل له منه به و له حقّا وجدنا به علماً بتبيان
هذا وجودي و تصريحى و معتقدي هذا توحّد توحيدى و ايماني⁵⁴

إنّه يرى غايته إلى الله و إليه المصير و الرجوع، و مقتبساً من الآية الشريفة - «إنا لله و إنا إليه راجعون»⁵⁵ و يقول:

أرجع إلى الله، إنّ الغاية الله فلا إله إذا بالغت - إلا هو⁵⁶

معلوم أنّ الاستغناء عن الحق سبحانه سبب الطغيان كما ورد فى القرآن: كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ (طه/24) و علا فى الأرض «وَأَن فِرْعَوْنُ لَعَال فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ» (يونس/83) وادّعى أنّه الربّ الأعلى حيث صرح « فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (النازعات/24).

الحلاج لا يعدّ ذاته مستقلاً عن الله تعالى، و قد تطرّق إلى أصل الوحدة بكلمات نحو الضمير المنفصل «أنا» و الضمير المتصل الفاعل (تُ) و ياء المتكلم «ي»، و قد يعدّ نفسه مظهراً لحلول اللاهوت فى الناسوت و يعنون «الوحدة الحولية» و قد يعتبر نفسه مظهراً للتجلّى الالهى و يشاهد فى نفسه ذاته عزّ و جلّ و ينشد فى الوحدة الشهودية و يقول:

فأنا الحقّ حقّ للحقّ حقّ لابسُ ذاته فما ثمّ فرق
قد تجلّت طوالع زاهرات يتشعشعن و الطوالع برق⁵⁷

الوحدة الوجودية:

الحلاج موحد في عقيدته و لدى إظهار عبوديته لله يتحدث عن وحدة الوجود (10) و لا يعتبر وجوده منفصلا و مستقلا عن ذاته عز وجل و يعتقد أنه لا بد من الاعتقاد بالله تعالى و يقول:

لست بالتوحيد ألهو غير أنني عنه أسهو
كيف أسهو؟ كيف ألهو و صحيح أنني هو⁵⁸
و يقول:

أنا أنت بلا شك فسبحانك سبحاني
و توحيدك توحيدي و عصيانك عصياني
و إسقاطك إسقاطي و غفرانك غفراني⁵⁹
و يقول

وجوده بي، و وجودي به و وصفه فهو له و اصف⁶⁰
و يقول:

روحه روحي و روحي روحه إن يشأ شئت و إن شئت يشأ⁶¹
و يقول:

ذكره ذكري و ذكري ذكره هل يكون الذاكران إلا معا⁶²
و يقول:

أنت أم أنا هذا في الهين حاشاك حاشاك من اثبات اثنين⁶³
الوحدة الحلوية:

إن الحلاج عند بيان علاقة الخالق بخلقه لاسيما الانسان و الحلاج خاصة، يعتبر حلول الروح الالهية في الأجسام سببا للوجود، لذلك يعتبر ذاته نموذجا من مظاهر حلول الروح في الإنسان ويشبه هذا الحلول باختلاط الشراب بالماء الزلال:

أنت بين الشغاف القلب تجري مثل جري الدموع من أجفاني
و تحل الضمير جوف فؤادي كحلل الأرواح في الأبدان
و يقول:

مزجت روحك في روحي كما تمزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسك شيء مسني فإذا أنت أنا في كل حال⁶⁴

و قد ركز في شعره على العلاقة الضمائية بين «أنا» المتكلم و «أنت» المخاطب، ليصل بهما إلى حالة من التوحد و الحلوية، حتى لا يصبح هناك إثنيّة مطلقا، بل وحدة في الواحد و يقول:

أنا من أهوى و من أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته و إذا أبصرته أبصرتنا

روحه روجي و روجي روحه من رأى روحان حللنا بدنا⁶⁵
و يقول:
جُبلت رُوحك في روجي كما يُجبل العنبر بالمسك الفتق
فإذا مسك شيء مسني فإذا أنت أنا لا نفترق⁶⁶

وحدة التجلي:

الحلاج عند معرفة الله تعالى يعدّ نفسه مظهرًا لتجلي الحق سبحانه، و بالبصيرة و بمعونة الكشف و الشهود الذاتى يحسب كل شئ مظهرًا لله تعالى، يقول لبيد بن ربيعة:

و في كل شيء له آية تدلّ على أنّه واحد
و يقول الحلاج:
فأنا الحقّ حقّ للحقّ حقّ لابس ذاته فما ثمّ فرق
قد تجلّت طوالع زاهرات يتشعشعن و الطوالع برق⁶⁷
و يقول:

لم يبق في القلب و الأحشاء جراحة إلاّ و أعرفه فيها و يعرفني⁶⁸
و يقول:

قد تحققتك في سرّ ري فناجك لساني
فاجتمعنا لمعان و افترقنا لمعان⁶⁹

حصيلة البحث:

الإمعان فى كلمات العرفاء و نصوصهم العرفانية، يرشدنا إلى أنّ العرفاء متحرّرون بالكلية و سبب هذا الشعور هو نظرتهم العرفانية إلى العالم و هي ليست إلاّ ثمرة معرفتهم الخاصّة و الناتجة عن الكشف و الشهود، و هذا التحرر قد تبلور في بيانهم الرمزي لأنهم عند بيان الأحوال يصرون على استخدام الرموز و المصطلحات العرفانية المبهمة، و يستخدمون لغة الشعر لأنّها لغة الرموز و الالغاز و التورية، فكلمة «الأنا» فى شعر الحلاج و فى كلامه المشهور (أنا الحق)، لها طابع رمزي و تحكى عن عقيدته التوحيدية و التى لها جذور عريقة فى المعارف القرآنية. و خير دليل على تحرره من كلّ قيد يسوق الإنسان إلى هاوية الأنانية و الطغيان. الحلاج عارف حرّ لا يعبد إلاّ الله و فى اتجاهاته التوحيدية، لا يعتبر لغيره تعالى وجوداً مستقلاً، و باستخدام ضمير «أنا» و سائر ضمائر المتكلم لا يعرف لذاته وجوداً مستقلاً و يعتقد بوحدّة الوجود و فى بيان علاقة الخالق بال مخلوق، يتحدّث عن وحدة الحلول و حلول اللاهوت فى الناسوت، كما يعتقد أنّ العالم كلّّه، مظهر بارز لتجلي الحق سبحانه و تعالى، و يتحدّث عن وحدة التجلي.

التعليقات

1. experience : الاختبار العلمى experiment : تجربة تنتهى إلى الخبرة الشخصية لدى الإنسان.
2. الكشف : رفع الحجاب و فى اصطلاح العرفاء: هو الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعانى الغيبية و الأمور الحقيقية وجوداً أو شهوداً، بيان ما يستتر على الفهم فيكشف عنه للعبد كأنه رأى عين.
3. الواردات : الوارد ما يرد على القلوب من الخواطر المحموده مما لا يكون بتعمد العبد .
4. الخواطر: ما يرد من المعانى الغيبية من غير تعمّد من العبد. فإذا كان من قبل النفس قيل له الهواجس و إذا كان من الشيطان فهو الوسواس و إذا كان من قبل الله سبحانه و إلقائه في القلب فهو خاطر حقّ.
5. الذوق: ما يجده العارف من ثمرات التجلّي.
6. الوجد: الوجد هو ما صادف القلب من فزع و همّ أو رؤية معنى من أحوال الآخرة .
7. الفرق و الجمع: ما يليق بأحوال البشرية فهو فرق و ما يكون من قبل الحق من أحسان فهو جمع.
8. القبض و البسط: القبض هو أخذ القلب بوارد يشير إلى ما يوحشه من الصدّ و الهجران و البسط و ارد يقتضيه إشارة إلى قبول و رحمة و أنس
9. شطحيّات: الشطح لفظة مأخوذة من الحركة لأنها حركة أسرار الواجدين إذا قوي وجدهم فعبروا عن وجدهم بعبارة يستغرب سامعها
10. الغنوصية: نزعة فكرية ترمى إلى مزج الفلسفة بالدين و تشتمل على طائفة من الآراء المضمنون بها على غير أهلها و تطلق على جماعة من المفكرين فى القرنين الأوّل و الثّانى.
11. مقام وحدة الشهود: مقام لا يشهد العارف فيه وجوداً مستقلاً عن وجود الإله جلّ و علا، و لا يشهد الإثنيّة فى الوجود.

الهوامش والإحالات:

- 1 - تجليات الأنا، في شعر الفارض، عباس يوسف حداد، رابطة الأدباء، الكويت، ص: 56.
- 2 - الفتوحات المكيّة، محي الدين بن عربي، تحقيق د. عثمان يحيى و...، بيروت، دارالفكر. ج1، ص100.
- 3 - ديوان الحلاج، شرح و تحقيق هاشم عثمان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت 1423هـ، ص 166.
- 4 - بحار الانوار، محمد باقر المحلّسي، ط2، بيروت، دار الوفاء، 1403هـ. ج66، ص391.
- 5 - ديوان الحلاج، ص36.
- 6 - نفس المصدر، ص 46.
- 7 - نفس المصدر، ص 79.
- 8 - حديث الأريعاء، الامام الخميني، نقلا عن بحار الانوار 1، ص225.
- 9 - الفتوحات المكيّة، 3، ص335.
- 10 - نفس المصدر، ج1، ص256.
- 11 - آشنائي باعلوم اسلامي، مطهري، دفتر تبليغات، قم، ص208.
- 12 - الرسالة القشيرية، ابو القاسم عبد الكريم القشيري، تحقيق عبدالكريم محمود و...، بيدار، 1374. ص121.
- 13 - تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، شوقي ضيف، دارالمعارف، مصر. عمر فروخ، ج3، ص403.
- 14 - منازل السائرين، ص 84.
- 15 - تجليات الأنا، ص199.
- 16 - ديوان الحلاج، ص134.
- 17 - في التصوف الاسلامي، ص124. تجليات الأنا، ص304.
- 18 - فصلت/ 53.
- 19 - مائدة/ 54.
- 20 - أصول الكافي، الشيخ الكليني، مكتبة الاسلاميّة، تهران، ج1، ص145.
- 21 - ديوان أبي العتاهية، شرح ديوان ابي العتاهية، دارالكتب العلمية بيروت، ص62.
- 22 - الأعلام، خير الدين الزركلي، دارالعلم للملّيين، بيروت، 1986م، ج2، ص260.
- 23 - آشنائي با علوم اسلامي، ص209.
- 24 - سير تكامل عرفان و تصوف اسلامي، ص112.
- 25 - ابعاد عرفان اسلام، آن ماري شيمل، ترجمه عبد الزّحيم گواهي، دفتر نشر، 1377. ص148.
- 26 - تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ص478.
- 27 - تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ص482.
- 28 - نامه هاي عين القضاة، مقدمه منزوي، ص149.
- 29 - المجادلة/ 11. بحار الانوار، ج 14، ص137.
- 30 - ديوان الحلاج، ص128.
- 31 - نفس المصدر، ص20.
- 32 - نفسه، ص50.
- 33 - سخن أنا الحق و عرفان حلاج، لوثي ماسيون، ترجمه دهشيري، نشر جامي، 1374 تهران. ص15.

- 34 - التجليات، ص 198
- 35 - ديوان الحلاج، ص 38.
- 36 - نامه های عين القضاة، تمهيدات ص 24.
- 37 - ديوان الحلاج، ص 144.
- 38 - نفس المصدر، ص 32.
- 39 - شرح ديوان حلاج، لويي ماسيون، ص 84.
- 40 - ديوان الحلاج، ص 52.
- 41 - تجليات الأنا، ص 195.
- 42 - في سبيل موسوعة فلسفية، ديكرت، د. مصطفى غالب، دار مكتبة الهلال، بيروت، 1989م ص 106.
- 43 - ترجمه و تفسير نهج البلاغة، علامه جعفري، دفتر نشر، تهران ج 2، ص 142.
- 44 - موسوعة علم النفس، د. أسعد رزوف، المؤسسة العربية للدراسة و النشر، بيروت، 1987م، ص 46.
- 45 - المعجم المفصل، اميل يعقوب، دارالعلم للملايين، بيروت ، ص 236.
- 46 - البقرة/ 115
- 47 - تجليات الأنا، ص 137.
- 48 - نفس المصدر، ص 198.
- 49 - نفس المصدر، ص 155.
- 50 - نفس المصدر، ص 130.
- 51 - نفس المصدر، ص 160.
- 52 - الكافي، ص 1، ص 85.
- 53 - شرح منظومه، مرتضى مطهرى، انتشارات حكمت، تهران، 1362، ج 2، ص 130.
- 54 - ديوان الحلاج، ص 138.
- 55 - بقره/ 156.
- 56 - ديوان الحلاج، ص 164.
- 57 - نفس المصدر، ص 139.
- 58 - نفس المصدر، ص 167.
- 59 - نفس المصدر، ص 141.
- 60 - نفس المصدر، ص 110.
- 61 - نفس المصدر.
- 62 - نفس المصدر، ص 107.
- 63 - نفس المصدر، ص 144.
- 64 - نفس المصدر، ص 122.
- 65 - تجليات الأنا، ص 199.
- 66 - ديوان الحلاج، ص 112.
- 67 - نفس المصدر، ص 114.
- 68 - نفس المصدر، ص 109.
- 69 - نفس المصدر، ص 143.